بين
الإلحاد والإيمان

أ.د / السيد عبدالحليم محمد حسين

الأمين العام المساعد لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا
عضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

● **قل أغير الله أتخذ وليًا؟**

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١٤] .

● **قل أي شيء أكبر شهادة عند الله؟**

﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ١٩] .

ماذا يمكن أن تئول إليه مصائر الإنسانية لو أن العالم عاد إلى الشرك القديم الذي حاربته الرسل والديانات والشرائع؟

وماذا تئول إليه أمور الحياة من فوضى وهمجية ووحشية لو أن عقيدة الشرك أصبح لها السيطرة على الأمم والشعوب .



ونحن لا نعني بالشرك هنا عبادة الأصنام والأوثان والكواكب والشمس والقمر والنجوم، وإنما نريد به مظهرًا جديدًا خطيرًا من مظاهر الشرك أدتنا إليه الحياة الحاضرة، وهو عبادة الإلحاد والمادية دون الله ﷻ، وعبادة زعماء هذه المادية الطاغية من أمثال: إنجلز وماركس ولينين وستالين.

إن المذاهب التي تعرفها الإنسانية هي مذاهب مثلي تدعو إلى السلام والحب والإخاء والتعاون، ولا تحتقر إنسانًا في كرامته أو عقيدته؛ أما المادية الشيوعية الجدلية التي يدعو إليها إخواننا الشيوعيون المحليون فتفرض فيك أنك عدو لها حتى تتبعها، وتحقر ديانتك حتى تؤمن بها.

وأنت إذا جلست مع أحد الشيوعيين المحليين لا يلبث أن يفاجئك بأن الدين الإسلامي دين العصور الوسطى، وأنه دين رجعي، وأن محمدًا كان مفكرًا لا نبيًّان وأن أفكار الإسلام كلها تنبع من معين الرجعية والجمود، وأن دين العصر الجديد هو الشيوعية، وكتابه الحكيم هو «رأس المال»، وأن نبيه هو هذا اليهودي الأثيم ماركس .. وسوى ذلك من مزاعمهم الأفنة، وترهاتهم الباطلة، وجناياتهم الأثيمة.

وقد وصلتنا هذه العدوى الأثيمة مع ما وصلنا من أباطيل الغرب وأكاذيبه وآثامه، واستهوت هذه الضلالات فريقًا من إخواننا في



الوطن والعروبة والدين، فلاكتها ألسنتهم، وردتها أفواههم، دون أن يعرفوا لها معنىٰ ولا محصولًا، ودون أن يدركوا خطر مثل هذه الدعوة التي تتنكر لشرائع الله وكتبه ودياناته ورسله جملة، وتكفر بالله واليوم الآخر، وتحاول أن تربي شباب العالم من جديد علىٰ معاداة الأديان بما تدعو إليه من مثل ومبادئ شريفة.

ولا يجد هؤلاء الشيوعيون المحليون منطقًا أقوىٰ في رأيهم من أن «الشيوعية» وصلت إلى الفضاء وطافت أقمارها الصناعية فوق الأرض ... وكأنما يريدون أن نفهم أن القوة هي الحق وهي الدين وهي كل شيء في الحياة.

فإلىٰ هؤلاء أسوق الحديث في هذا الكتاب، الذي توضح فصوله أهمية الإسلام وخطره في التفكير الإنساني، وأنه رسالة سماوية نزل بها ملك من السماء علىٰ محمد بن عبد الله ﷺ؛ وتوضح كذلك أننا لا يمكن أن نترك عقيدتنا الصالحة، وديننا الأمثل، ونستعيض بها أفكارًا مخربة أتىٰ بها إنجلز وماركس ولينين وستالين، وسواهم من طواغيت الشرك والضلال.

وما توفيقي إلا بالله

أ.د/ **السيد عبد الحليم محمد حسين**



ولنتدبر قول الله سبحانه : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف : ١٠٨-١١١].

إن الإيمان بأن محمدًا ﷺ يدعو هو ومن اتبعه إلى الله على بصيرة، قاض بإجابة تلك الدعوة والعمل بها، وهي قاضية بالإقلاع عن الشرور والمعاصي، والتزام حدود الله، والاتعاظ بما قصه الله سبحانه من سير الأولين، والتدبر في عاقبة ما حل بالأمم جزاء ما اقترفته؛ فقد آن للمؤمنين أن يتدبروا، وآن للأمم أن تعتبر وتتعظ، وآن لهم أن يؤمنوا بأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، فقد حل بأسه، وسينجي الذين اتقوا، وستكون لهم دار الآخرة، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف : ١٠٩]؟!

ولكن لا يأس من روح الله ؛ فقد آن للمسلمين أن يستعدوا لحمل نصيب وافر من مدنية فاضلة روحية تختلف عن هذه المدنية الفاسدة التي جعلت العالم أتونًا ، وساقت إلىٰ ذلك الأتون أبناءها طعامًا ووقودًا ؛ وآن لنا أن نفكر في حياة عزيزة يصفو لنا فيها العيش ، فنستمتع بثمرات جهودنا ، ونضرب في العلم بسهم ، وننصر مدنية فاضلة ؛ وآن أن نجاهد في سبيل هذا لا نريد ظلمًا وعدوانًا ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠ ، ٤١] .

لكن هذا لا يكون إلا إذا غيرنا أحوالنا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] . ونحن لم نذل عن قلة ؛ نحن كثير ولكنا كغثاء السيل ، لكنا مع هذا نستطيع أن نضع أمام أعيننا قبلة نولي وجوهنا إليها ، وأن نضع أمامنا هدفًا نسعىٰ إليه ؛ وإذا كنا ضعافًا فنحن نقوىٰ بالاتحاد ، ونقوىٰ بالتناصر ؛ ولسنا بأضعف من موسىٰ وقومه أمام فرعون وملئه ؛ وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

ونقول لمشركي اليوم من عباد الإلحاد والشرك والكفر بالله، ومروجي مبادئ الضلال وحرب أديان الله ورسالاته: إنكم لا تستندون في مزاعمكم الباطلة إلى علم صحيح، ولا إلى رأي ناضج، ولا إلى أفكار سليمة، إن تتبعون إلا الأباطيل والضلال والظنون والأوهام، وإن أنتم إلا تكذبون على الحقيقة وعلى الناس وعلى الله وملائكته، وسوف تلقون جزاء ما كنتم تفترون.





الفصل الأول

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

[يونس: ١٨]



الإسلام أول وثيقة لحقوق الإنسان

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

منذ قرن ونصف من الزمان، قامت الثورة الفرنسية، وأذاعت في أوربا والعالم كله، مبادئ الحرية والإخاء والمساواة ... وقام على أساس هذه المبادئ عهد جديد في تاريخ الإنسانية، هتف به رجال الفكر، وأشاد به المصلحون في كل مكان، ونسبوا كل فضل فيه إلى فرنسا مهد الحرية والنور، ويعلم الله أنهم كانوا في ذلك أغرارًا وأنهم نسوا الإسلام ومبادئه الخالدة التي كانت أول لبنة في صرح الحضارة الإنسانية.

ولقد هال الناس ولا يزال يهولهم، هذا الفرق الشاسع بين هذه المبادئ الحلوة الجميلة، التي طبقها الغرب في العالم، فكانت شرًّا وبلاءً واستعمارًا مخيفًا؛ وقتلًا للحريات والشعوب، وبين مبادئ الإسلام السمحة الكريمة، التي قامت عليها دول، نشرت العلم والحضارة والنور والحرية والإخاء في العالم كله، وأنقذت الدنيا من ظلمات العصور الجاهلية، ورفعت قدر الفكر الإنساني ونقلت تراث الأقدمين وحفظته وخلدته وأذاعته، واقتبس الغرب كل



خفقت الراية الإسلامية على شعوب كثيرة ذات حضارات قديمة، وعلى أمم بدائية لم تعرف نواميس التقدم والرقي من قبل فوحد الشمل وبدد الفرقة وساوى بين هذه وتلك، وحارب التفرقة العنصرية الكاذبة، وقاد الجميع بكلمة الله إلى حيث العمل والنظام والاتحاد والجهاد لأداء رسالة الدين، والتبشير بحياة فاضلة بين الناس، وصارت العربية هي لغة العالم الجديد، والقرآن دستور الحياة في هذه الرقعة الشاسعة من الأرض، والإسلام هو عقيدة الجماعات والطوائف والأفراد، جاء الإسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها، ويدعو إلى أكرم ما في الحياة من مبادئ، وإلى أسمى ما تتطلع إليه الإنسانية من مثل وغايات وأهداف، ويشرع شرائع للسلام لم يشرعها من قبل ولا من بعد مذهب من المذاهب، ولا عقيدة من العقائد.

كفل ديننا الخالد الحريات، وهدم الفروق الظالمة بين الناس، وسوى بينهم في الحقوق والواجبات، وجعل الرئيس والمرءوس مسئولين عن أعمالها، ووسع باب العدالة حتى لا تنتهي فيه عند حد، ولم يستثن من أحكامها إنسانًا ولا طائفة، ولم يقف في طريقها حتى اعتبارات الفتح والغلبة والسيادة ... يقول عمر رضي الله عنه من وصيته للخليفة من بعده: (اجعل الناس عندك سواء: لا تبال على



من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأثرة والمحاباة، فيما ولاك الله . . .)[١].

والحكم في الإسلام أساسه مشيئة الشعوب وإرادتها، ورعاية حقوق الإنسان في الحياة والحرية والكرامة والعيش؛ وإطلاقه للحريات إلى أبعد مدى معروف، فحرية الفكر والرأي، وحرية التصرف والعمل، والحرية الشخصية، والحريات العامة، وحرية الإنسان في مسكنه وفي اختيار لون الثقافة التي يريدها لنفسه ولأبنائه، والحرية السياسية، كل هذه الحريات قد قررها وحماها الإسلام وكتابه الحكيم، وليس للحاكم -في شريعة محمد بن عبدالله- طاعة مفروضة إلا في حدود القوانين والدين، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعلى الشعب أن يقومه إن زاغ، ولذلك قال أبو بكر رضي الله عنه: «من رأى منكم اعوجاجًا فليقومه»[٢]، وقال: «إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني»[٣].

---

(١) انظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (١/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ٣٣٦).



ولنشر السلام في الأرض دعا الإسلام إلى المساواة الكاملة بين الناس جميعًا: الصغير والكبير، والمحكوم والحاكم؛ والفقراء والأغنياء، وبين جميع الطبقات والجماعات؛ وهي مساواة لا تعرف معنىً للعصبيات والأجناس والألوان، حتىٰ لقد كان الخليفة عمر رضي الله عنه يمشي وعبده راكبًا، وولىٰ رسول الله ﷺ بلالًا رضي الله عنه على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، وأبطل الإسلام التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال، وجعل العمل وحده هو محور التفضيل والإكرام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣] ولذلك ألغى الإسلام الفوارق والامتيازات، ودعا إلىٰ عدالة اجتماعية حكيمة مبنية على الأخوة والتكافل العام بين الأفراد والجماعات، عدالة أساسها التحرر الوجداني والضمير البشري الحي والتشريع الإسلامي المحكم.

ويقرر الإسلام أن أصل الناس واحد، وأنهم أخوة في الإنسانية وأن علاقات الأمم بعضها ببعض يجب أن تنبني على السلام والمحبة والتعاون في الأرض، ولذلك حارب الاستعمار والاستغلال والطغيان والفساد، وحرم شن الحرب للسيطرة والنفوذ والسلطان،



ودعا إلى الرحمة والخير والإيثار والإخاء والمحبة بين الناس، وحطم الشرك والوثنية حتى لا يستعبد أحد أحدًا في الأرض، وألغى الرق البشري، وهدم عروش الطغيان والجبروت، واعترف بحقوق الفرد الأساسية، ورعى حقه في العيش وفي التأمين الاجتماعي، وفي المنزلة الأدبية، حتى لا يوجد شيء يعكر أسباب السلام بين الناس.

والإسلام كذلك دين الديمقراطية الصحيحة التي ترتكز على أصول قوية، ودعامات ومبادئ مثلى؛ فهي تؤمن بمبدأ حكم القانون، وبأن حكم الشعب للشعب، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الشعب والعمل على رفاهيته، وتؤمن كذلك بروح التسامح والحرية الاجتماعية وحرية الرأي للأفراد والجماعات، وبالحرية الاقتصادية التي تهدف إلى تحقيق الرفاهية للناس كافة، والتي تؤدي التزاماتها كذلك للفقراء وللمجتمع والدولة، ثم هي تحارب كل لون من ألوان التمييز بين الناس.

وأقام الإسلام كذلك أصوله على اشتراكية مثلى، دعامتها العدل والتعاطف والتكافل والمحبة بين الناس، والإيثار والتضحية وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، والألم لشقاء الناس، وبذل ما في اليد ومساعدة كل محتاج، اشتراكية لا تدع لذي ألم ألمًا، ولا لذي



حاجة حاجة ، ولا لذي كربة كربة ، اشتراكية يرعاها الله ورسوله وشريعته ، ويدعو إليها الضمير الإنساني .

وهي من الناحية الاقتصادية تنزع إلى مقاومة الاستغلال في مختلف ألوانه ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الشورى والإخاء بين الناس ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط به حقوق والتزامات .

ومن حيث الوسائل تنكر الثورة والتمرد وصراع الطبقات ، وتحرص على الأمن والسلام بين الناس ، ولا تجعل الملكية وسيلة للامتياز والتفاوت بين الناس ، وغايتها إشاعة الخير والرفاهية بين بني البشر عامة ، وحماية حقوق الإنسان والعامل والمرأة وتقرير التأمين الاجتماعي للفقراء والمعوزين ، وفرض الزكاة ضريبة يخصص إيرادها لمحاربة الفقر وسد حاجة المنكوبين من الناس ، وتحريم الربا والاستغلال والاحتكار في شتى صوره ، ورفع شأن العامل وفتح أبواب العمل أمامه والحض على العمل وعلى إيجاده للعاطلين : بما يشرعه الإسلام من نظم اقتصادية سليمة ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة والشركة والإجارة وعقد العمل وسوى ذلك .

ومن ثَمّ حرم ديننا الترف والإسراف وحدَّ من غلواء الرأسمالية ، وكره التمييز بالتفاوت المادي بين الناس ، وأوصى بالصدقة



والإحسان وفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم من الأثرياء أو القادرين على الكسب، وشرع نظام الوصية والقرض والوديعة والإعارة والهبة وفريضة الميراث، وأوصى بالتكافل الاجتماعي بين المسلمين عامة.

وهكذا نجد أصول الإسلام ومقومات شريعته ودعائم ميراثه الروحي، تنزع نحو حماية الحريات وإشاعة السلام والخير بين الناس، وتجعل من هذه الأصول الكريمة أساسًا لحضارة إسلامية مشرقة، ومدنية روحية مزدهرة، قامت ونمت وترعرعت في الأرض، واجتمعت عليها الأمم والشعوب متعاونة متحدة يسودها العدل والأمن والطمأنينة والنور والعلم؛ والإخلاص لله ولرسالة الإسلام السامية المخلدة.

فأين هذا من صنع الحضارات المادية السائدة في عالم اليوم، ومن آثام المدنية الغربية المجللة بالخزي والعار والكراهية على أرض الشرق؟ أين هذه الأصول السمحة العالية الكريمة من الأصول التي تبني عليها دول الغرب وروسيا سياستها المدمرة المخربة في الجزائر وكينيا وفلسطين وفي كل إقليم وطئه الاستعمار الخبيث الذي يهدم صروح الحرية والسلام في كل مكان؟



إن الإنسان الذي يعيش اليوم في غمار مدنية القرن الحادي والعشرين لأولى به أن يرجع إلى حياة الغابة من أن يعيش في ظلال القلق والخوف والطغيان والدماء .

وإن المدنية التي ترفرف على شعوب العالم الآن لحري بها أن تنكس الأعلام خزيًا وحياء من أن تنسب إلى المدنية الفاضلة وإشفاقًا من أن توازن بمدنية المسلمين التي شملت العالم كله حقبًا من الزمن فشمله الخير والنور والسلام ، وسعدت بها أمم كانت ترسف في قيود الطغاة ، فاستعادت حريتها ، وعاشت تكافح من أجل رفاهية البشر وتقدمهم ، ونشر رسالة الله والإسلام بين الناس .





دعوة إلى السلام العالمي

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾

[الأنفال: ٦١]

قال ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به؛ ويعجبون له؛ ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[1].

ويقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة.

ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٣-١٥].

إن الإسلام دعوة إلى الأخوة الإنسانية العامة، وإلى الزمالة البشرية المشتركة، وإلى وحدة الأديان والعقائد ... وهو دعوة إنسانية عالية إلى السلام العالمي المنشود.

أو ليس هو هادي البشر للسعادة الأبدية، ومن دعا إلى الديمقراطية الصحيحة، وقرر الحكم بالشورى، وهدى الإنسانية بعد الشرك والوثنية، والضلال والهمجية والوحشية، وأنقذها من الاستعباد والظلم والهوان والمذلة.

رفع أيدي الحكام عن الشعب وأمواله، حتى لقد قال محمد صلوات الله عليه لابن اللتبية وقد استعمله على صدقات بني سليم، فلما جاء إلى النبي ﷺ وحاسبه فقال: هذا الذي لكم، وهذه هدية أهديت لي، فقال رسول الله ﷺ: **«هلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا؟»**[١]، وفي بقية الحديث: أنه قام فخطب الناس، ونهى عن مثل هذا وتوعد عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.



وساوى الفقير بالغني، والصغير بالكبير، والمحكوم بالحاكم، والمرأة بالرجل، والأعجمي بالعربي، والوضيع بالشريف، ولقد قال لفاطمة بنت محمد رضي الله عنها: **«يا فاطمة، إني والله لا أغني عنك من الله شيئًا»**(١).

إن الخير كل الخير في أن تؤخذ تعاليم محمد ﷺ بغير تنقيح أو تعديل، وأن تطبق تطبيقًا صحيحًا، كما هي، لتسعد البشرية، ويستقر السلام العالمي المنشود، فالعالم لن يحيا من موته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام، والتي لا بد أن ينتهي إليها في يوم من الأيام؛ كما قال برنارد شو الفيلسوف الإنجليزي العظيم، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن الإسلام أسس إمبراطورية، ولكن أية إمبراطورية هي؟ ولكن أي دين وشريعة هو؟ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦) من حديث أبي هريرة.

حرية وعدالة، وإخاء، وعلم وثقافة، وشعور بالمسئولية، وتربية للوجدان والمشاعر، وإرهاف للإدراك وللأذواق والفطر الإنسانية السليمة، ومؤاخاة للعقل لا حد لها.

إن الإنسانية لابد أن تتأدى إلى هذه الشريعة وفق ناموس التدرج والارتقاء؛ وإن أصولها العامة لابد أن تذيع في العالم، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣، ٨٤].

إن الغرب تعلم عن الإسلام كيف يرفع بصره إلى السماء، وكيف يدرك أن انتصار العقل المادي لا قيمة له، إلا إذا اقترن بانتصار العاطفة والروح، واتجه وجهة إنسانية لمصلحة الفرد وخير المجموع البشري . . . وأخذ عنه ميراث الحضارة.

ولكنه لم يأخذ عنه النزعات التأملية، ولا الجوانب الروحية؛ التي تتجه بالمدنية وجهة الحق والخير والعدل والجمال والكمال الروحي.

لقد بلغ الغرب أوج التقدم العقلي والمادي، ولكن ما زالت عواطفه متبلدة وأرواحه هائمة حائرة.



إن الكمال الروحي الذي كان بالأمس مثل الشرق الأعلى، قد أصبح اليوم قبلة طائفة كبيرة من الغربيين؛ تحاول أن تدمجه في عقيدة القوة والتقدم المادي، لتؤلف من المزيج مثلًا إنسانيًّا أعلى.

ولكن مهمة التوفيق هذه يجب أن تكون رسالة الشرق الجديد لتحقيق الرسالة الإنسانية الكبرى، بالجمع بين حضارة الغرب والشرق، بين العلم والعاطفة، بين العقل ونزعة التأمل، بين الفكر التجريبي والفكر الإسلامي، بين قوى الذهن المادي المبتكر وقوى الروح النبيل، الساعي لتحويل جهود الذهن لخير البشرية جمعاء.





الأصل الأول للإسلام

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] .

الحضارة في مذاهب المفكرين يقصد بها هذه المنزلة العالية ، والتي تبلغها بعض الأمم من الرقي العام ، والنشاط الفكري الخصب ، والحرية الكاملة بأوسع معانيها .

وبقدر منزلة الأمة من الحضارة تكون مكانتها بين الدول والشعوب ، فالحضارة هي غاية ما يبلغه الإنسان ، وهي المثل الأعلى للجماعات ونهاية المطاف في تاريخ الإنسانية .

وفي وسع الإنسان أن يخلق لنفسه ولمجتمعه ألوانًا من الحضارة يتمتع بها ويعيش في ظلها ، ولذلك وجدت الحضارات القديمة من غابر الأجيال ، ولكن لا يمكن أن توجد شتى ألوان الحضارة في عصر واحد ؛ لأن الحضارة متجددة بتجدد العصور وتطور الإنسانية في مدارج الكشف والابتكار ، والذين يعيشون الآن يخالون من سبقوهم من أهل القرن الماضي بدائيين أو شبه بدائيين .



كانت الحضارات القديمة تقوم على المادة والاستعباد والفوارق الكبيرة بين الطبقات، فلم يظهر أثر الشخصية الإنسانية أو الطابع الشخصي والفكرة الذاتية وحرية الخلق والابتكار.

أما الحضارة الإسلامية فقامت على أسس رفيعة من المثل العليا، والآداب والمبادئ القويمة، فجمعت بين المادة والروح، والدنيا والآخرة.

وفي عهد الثورة الفرنسية كانت الحرية والإخاء والمساواة، أنشودة الأمم الساعية في مواكب التقدم إلى المجد والحضارة.

ونحن الآن نسمع الآراء المتباينة عن الأسس الأولى التي تقوم عليها الحضارة الإنسانية، أتقوم على المال، أم على العلم، أم على الحرية، أم على البواعث الرفيعة التي تدفع الإنسان إلى الخلق والابتكار؟ ولكن الإسلام يجعل أساس الحضارة هو الشعور بالمسئولية، شعور الفرد بواجبه والمجتمع بمهمته في الحياة، والأمة برسالتها في خدمة البشرية كافة.

فشعور الفرد بمسئوليته يحفزه إلى العمل لخير نفسه وأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه والأمة التي هو مدين لها.



وشعور المجتمع بمسئوليته يدعو إلى الإصلاح والتجديد والنشاط المستمر ، والعمل على رفاهية الشعب وخير الوطن ومستقبله ، فيحارب الجهل والفقر والمرض والخوف والاستعباد ، ويعمل على نشر الطمأنينة والأمن والسلام والحرية والكرامة .

وشعور الزعماء بمسئوليتهم يدعوهم إلى الجهاد في سبيل تقدم الشعب وحريته ، ورفع منزلته بين الجماعات الإنسانية العاملة في ميدان الحياة .

وشعور الأمة بمسئوليتها يدعو إلى المحافظة على حريتها والذود عن كرامتها ، والحرص على أمنها وسلامتها ، والعمل الجاد في سبيل رفاهيتها وعزتها ومجدها ، لتسير إلى الحياة الكريمة مع السائرين في مواكب الإنسانية والحضارة ، ولتدعم مكانتها بين الشعوب الحية العظيمة ، ولتؤدي رسالتها كاملة في الحياة .

الشعور بالمسئولية هو الفارق بين الشعور المتأخرة والشعوب الحية المتحضرة ، وهو أهم عنصر في الديانات والشرائع والقوانين ، وأول عامل على حفظ نظام الحياة وعلى بلوغ الإنسانية والحضارة أهدافها الصحيحة ، وبحق هو أساس الحضارة .



ويشتد شعور الرجل بالمسئولية كلما عظمت رسالته في الحياة، فالأنبياء والمفكرون والزعماء والمصلحون هم أكثر الناس جهادًا ونضالًا في سبيل أداء ما حملوه من مسئوليات جسام وتبعات كبيرة.

وكلما عظم إيمان الإنسان بدين أو مبدأ أو فكرة كان أكثر شعورًا بمسئوليته، وأسرع عملًا من أجلها وأكبر نشاطًا في سبيل أداء الأمانة التي حملها.

فلنستمد الشعور بالإنسانية من حرارة الإيمان وقوة العقيدة، ومن مبادئنا القويمة التي نؤمن بها، ونعمل لها، ونضحي في سبيلها بكل شيء.

ولنرب الشعور بالمسئولية في التلميذ والشاب والرجل والمرأة، والعامل والتاجر والصانع والزارع، والموظف، والكبير والصغير، والغني والفقير، والرئيس والمرءوس، فذلك هو السبيل إلى المجد وعظمة الحياة وخلودها.

ولنمض في طريقنا، تدفعنا قوة العزيمة وحرارة العقيدة وسمو الهدف وجلال الغاية، متمثلين قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ



عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقول رسولنا الكريم ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»(١).

***

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.



الفصل الثاني

﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : ١٤]



القرآن كتاب الله

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[البقرة : ٢]

إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ، على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانًا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف .

وقد جاء القرآن على كثرته وطوله ، متناسبًا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر : ٢٣] ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] .

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج، ومعرض رشيق، ونظم أنيق، غير متعاص على الأسماع، ولا ملتو على الأفهام، ولا مستكره في اللفظ، يمر كما يمر السهم، ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على الطارق المتاب، كالروح في البدن، والنور المسيطر في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ولقد كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر، تحبها وتعشقها وتجيدها، وترفع من منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ، وتنوه بهما، وكانت أكثر ما يكون خطيبًا وشاعرًا وأديبًا، فإذا نبغ في القبيلة شاعر، أو ظهر فيها فصيح، استبشرت وافتخرت، وأقامت الموائد، واحتفلت بذلك الشيء العظيم، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها وباركت شاعرها أو خطيبها.

كان ذلك فطرتها، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء، وللفراغ الكثير الذي كانوا فيه، ولحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر، وتلهم الشاعرية، وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون.



ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقي إليهم العرب القياد: يصغون لقولهم، ويسيرون وفق رأيهم، ويمضون ما يحكمون به بينهم، يضعون الشريف النابه، ويرفعون الخامل الوضيع، فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيمًا، وكان النابغة سفيرًا للعرب في قصور المناذرة والغساسنة، وحكمًا بين الشعراء في سوق عكاظ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبني غسان، ويسافر إلى الحبشة، وكان قس ابن ساعدة الإيادي الخصيب يفد على قيصر والغسانيين، إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء، والشعر والشعراء ... وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب، ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه.

فملا بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة، نزل عليه كتاب مطهر من السماء، هدى ونور وبشرى فيه دعوة إلى التوحيد، والطهر والخير والحق، وفيه ما شاء الله أن يبلغه البشر، من شئون الحياة، وأخبار الأمم، وقصص دعاة التوحيد: من المرسلين والأنبياء، وفيه كل ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم: من تشريع، وعبادات، وأخلاق، وفضائل، وآداب، وتوجيه كامل إلى المثل العليا.



نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحي الصادق ، والدستور العظيم ، فكان في أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ، ومحاورات ، ومفاخرات ، ومنافرات ، ووصايا ، ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم ، فخروا ساجدين لفصاحته ، مذعنين لبلاغته ، مقرين بأنه نسيج وحده ، وعلم مفرد في طبقته في البيان ، بهر الشعراء منهم ، فخرست ألسنتهم وسكتت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب في الصحراء ، وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ملكاتهم ، وفقدوا مواهب البلاغة والقول . . . وذهبت كل بلاغة في تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين ، فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام . . . فقالوا في القرآن : هو شعر ، هو سحر ، وهي أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق . . . ورموا محمدًا بالجنون .



فتحداهم الله ﷻ، ورسوله محمد صلوات الله عليه، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة، بالقرآن الكريم، والكتاب العربي المبين، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فسجل عجز البشر كافة، وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن -ولو تظاهروا- الوقوف أمام هذا التحدي، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة، التي هي فوق طاقتهم، لأنها بلاغة خالق البشر، ومصور الإنس والجن، الملك القادر والمدبر الحكيم: الله جل جلاله، وعلت قدرته، وعظمت حكمته ... ونفى الله ﷻ عنه الشعر والسحر، وبرأ

رسوله من أن يكون شاعرًا وساحرًا، ومن الافتراء والجنة، ومن الكذب والخيال، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٤٠-٥١].

وهكذا رد الله ﷻ عليهم وبين كذبهم وافتراءهم، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبين أنه منزل من السماء، وأنه معجزة محمد بن عبد الله ﷺ الخالدة، وتحداهم -إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين- إلى الإتيان بمثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا أمام التحدي، وباءوا بالخزي والهوان والذلة، وصغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة أو سور، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.



ثم امتدت الأجيال، وتوالت العصور، والقرآن يتردد صداه في المشارق والمغارب فلم نر رجلًا وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدعي قدرته على مثل هذا البيان؛ ولم نر مفكرًا يؤلف كتابًا أو شاعرًا ينظم قصيدة، أو خطيبًا يلقي خطبة؛ أو كاتبًا يحبر رسائل ومقالات، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة، أو شبيه ذلك السحر.

وفي تاريخ العربية فحول وفحول: كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع، وكجرير والفرزدق وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري وشوقي، ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة، وأين منازلهم من هذه المنزلة؟ وهل منهم إلا من أذعن وبهر؛ وخشع وسحر، وخضع وأخذ، وأقر أنه وحي من السماء ... وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة: كنهج البلاغة، ورسائل الجاحظ؛ وكليلة ودمنة، ومقامات البديع ... إلخ.

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات، وما مكانتها وما قيمتها، وما أثرها وما خطرها في البلاغة الأدبية، أمام كتاب الله المعجز وكلامه الحكيم؟ بل أمامك الحديث النبوي الشريف، هو في الدرجة العليا من الفصاحة ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسي البيان.



واقرأ إن شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء؛ ثم انظر - بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب؛ وجمع عقل - في ذلك، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين(١).

وأراد مسيلمة الكذاب -فيما يروى- أن يقول كلامًا، فخزي وعجز؛ وبان عليه العي والحصر، وباء بالخسران وسوء المنقلب، وأين يقع قوله: «والليل الدامس؛ والذئب الهامس؛ ما قطعت «أسيد» من رطب، ولا يابس»، وقوله: «والمبديات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما؛ إهالة وسمنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، وغير ذلك من كلامه»(٢)، من ذلك السحر والنظم القرآني العجيب المعجز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية.

---

(١) «إعجاز القرآن» للباقلاني (١٢٦)، طبعة ١٩٤٨م

(٢) راجع طرفًا منه في المرجع السابق (ص١٢٨).



ولكن هل هناك من هذه الآثار، ما يعادل في أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتجديد واضح للمثل الإنسانية العليا، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة المدنية والعلم والعرفان؟ وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه، ويعدونه دستورهم في الحياة، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية؟ وهل من بينها أثر قام به دين، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالًا طوالًا مثل القرآن الكريم، والكتاب الحكيم؟ وهل للقرآن - بربك- شبيه من الكتب: وحد لغة وحفظها وأذاعها في العالم، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها، وأحيا فنونًا جديدة من الأدب، وتأثر الناس ببلاغته وسحره، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة ... كالقرآن الكريم، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية في لغة العرب، فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية، وفي حياة العالم والإنسانية كافة؟

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم، يؤمنون إيمانًا صادقًا بأن لا سبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه؛ وأنه شيء انفرد به وحده، وأنه كلام الله



لهذا التبليغ إلا بأن ينزل ملكًا من السماء على من يصطفيه برسالته ليبلغه كل ما أراد الله تبليغه للناس . . . وهذا ما كان .

يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل : ٣٦] .

بعث الله إلى آدم وإلى نوح وإلى إبراهيم وإلى النبيين من بعدهم ، واختتمت الرسالات بمحمد بن عبد الله ﷺ ، فنزل عليه القرآن آخر الكتب السماوية وأجمعها هداية إلى الله وإلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وقد قص الله ﷻ في كتابه قصص الأمم السالفة وأنبياءهم ورسلهم المبعوثين إليهم ، وبين مصائرهم وما واجهوا به أنبياء الله في كثير من المواضع والآيات .

وفرض الله ﷻ الإيمان برسالات الله ورسله وعدم الريب في أحد منهم ، يقول الله تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .



ويذكر الله المسلمين بأن دينهم قد جمع كل ما في الأديان السالفة من أصول ومثل ومبادئ وشعائر فيقول : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى : ١٣] .

ولقد عبر الله أعظم تعبير عن اختيار الرسل لرسالاته بالاصطفاء فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣٣ ، ٣٤]، وقال الله ﷻ : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على رسالاته ، والذاكرة لرسله والمبينة لأصول ما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

إن الرسالات السماوية كانت خير مرشد للإنسانية في ضلالها وحيرتها ، وكانت خير موجه للعقل البشري في جهله وعماه ، وكانت أعظم ضوء أنار الحياة كلما ضل الناس وعموا وغووا وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا .



والعقل لا يفهم كثيرًا من أمور الإنسان الباطنية، فكيف يستطيع أن يدرك أسرار ما خلق الله، وأسرار شرائعه، وأصول الأديان التي تمنح الإنسان الخير والطمأنينة والرشاد والسعادة ... ومن ثم كانت الرسالات السماوية لهداية الناس حيث عجز العقل، وعجز الإنسان عن فهم أسرار الحياة والكون والوجود ... وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥١-٥٣].

وصدق الله العظيم فيما يقول لرسوله الكريم: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].



القرآن والغيب

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة : ٢] .

يكذب المشركون الماديون ، مشركو اليوم ، بالغيب ، يكذبون بالأديان لأنها في رأيهم خرافة ، ويكذبون بالرسالات ، لأنها في زعمهم وهم ، ويكذبون بالله لأنه في رأيهم لا وجود له ، ويكذبون باليوم الآخر ، لأنه تخريف وإرهاب للإنسان وحجر على حريته كما يزعمون .

وكذلك افتروا وضلوا ضلالًا بعيدًا .

إن الإيمان بالدين وبوجود الله ، وملائكته وكتبه ورسله ورسالاته وباليوم الآخر شيء لا مفر للإنسانية منه ، وقد عرفته الإنسانية منذ مئات الآلاف من السنين ، ولا ينكره العقل ولا العلم ، ولا يمكن أن يكون فيه ما يعوق تقدم الإنسانية نحو غد أفضل ومستقبل منشود .

وما دمنا قد تكلمنا عن الرسالات وعن وحدانية الله ، فلنتكلم في إيجاز عن الملائكة واليوم الآخر .



أما الملائكة فقد ورد ذكرهم في جميع الكتب السماوية، وهم خلق آخر من مخلوقات الله غير الإنسان، وأجسامهم أثيرية لا ترىٰ، وهم منتشرون في كون الله العظيم، يسبحون بحمده، ويسجدون له، ويحمدونه وينزهونه، ومنهم جبريل ﷺ، وهو ملك الوحي، الذي نزل على الرسل برسالات الله.

والإيمان بالملائكة أمر لا يتنافىٰ مع العقل ولا مع العلم في شيء، فأكوان الله العظيمة، ومخلوقاته الكبرىٰ، والسموات والأرض والكواكب والنجوم، لا يحيل العقل أن يكون فيها مخلوقات من مخلوقات الله، وعباد من عباده الطيبين الطاهرين المقربين؛ ولندع ذلك، أليس في الفضاء بين السماء والأرض والكواكب والنجوم والمجرات الكثير من آيات الله التي لم يصل العقل بعد إلىٰ فهمها وإلى اكتناه أسرارها! أليس في الأثير بما يحتوي عليه ما يمكن أن تعيش فيه أجسام شفافة نورانية تسبح بحمد الله.

ولننظر إلى اليوم الآخر الذي يكذب به المشركون والماديون كما كذب به من قبل أسلافهم ... إن القرآن الكريم يؤكد حقيقة اليوم الآخر تأكيدًا قويًا متينًا في جميع آياته وسوره، وينعىٰ على المشركين تكذيبهم به، وإنكارهم له ... ويتهكم بهم وبما يفترون تهكمًا كبيرًا؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ



وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

وقد تحدث الله ﷻ في كتابه الحكيم عن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار حديثًا مستفيضًا، ونعى على المشركين شركهم وكفرهم باليوم الآخر، فقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويؤكد الله ﷻ أمر الساعة فيقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩]، ويقول ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤].

إن الإيمان باليوم الآخر بما يشتمل عليه أصل كبير من أصول الأديان وفي مقدمتها الإسلام الكريم، ومهما قال الماديون



والشيوعيون المحليون فإننا ننظر إلى كذبهم وافترائهم وبهتانهم بالسخرية والتهكم الشديد ... ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].





الدين لا غنى للناس عنه

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

إن الدين في عرف الشيوعيين المحليين وزعمائهم : خرافة، وهو مخدر للشعوب، والدين عندهم هو ما أتى به ماركس، لا دين غيره، لا مسيحية ولا إسلام، لا يهودية ولا غيرها؛ لا توراة ولا إنجيل ولا قرآن، لا رسل ولا رسالات ... لنؤمن إيمانًا أعمى برأس المال لماركس، وبسواه من الكتب المفسرة له، والمؤيدة لمذهبه، ولنكفر بكتب الله ورسالاته .

الدين إثم وضلال وبهتان في عرف الشيوعيين، ولكن الشيوعية دين حق وصدق ورشد وسعادة لمتبعيه .

وكذبوا وضلوا ضلالًا مبينًا .

في الإنسان غرائز وطبائع مختلفة جسمية ونفسية، وللجسم حاجات وللنفس ميول ورغبات؛ وقد تجمح هذه الغرائز فتضل وتتعدى الحدود فتظلم، فلم يتركها الله سبحانه وتعالى دون أن يضع



لها الحدود وينظم لها أساليب الحياة وينظم لها أساليب العلاج ؛ فأنزل شرائع تناسب كل عصر ، فلما غيرت هذه الشرائع وبدلت أرسل نبيًّا بشرع باق مدى الدهر ، وهو الإسلام ، الذي حد حدودًا ، ونظم أساليب الحياة ، وأرسى دعائم التعامل بين أفراد المجتمع ، ولا عجب فللإسلام مآثره الرائعة في تحرير الشعوب ، والذياد عن الحقوق ، وتنظيم الواجبات ، وفرض العدالة والمساواة والإخاء ، وحماية الفكر ورعاية الثقافة .

ولا ريب أن في اتباع مبادئ الدين والسير على منهاجه ، والإيمان بما يدعو إليه من مثل ، عصمة من الزلل ، ومنجاة من العثار .

فالمبادئ القوية لا تخلق الجماعات القوية إلا إذا آمنت بها واتبعتها ، واتخذت منها ناموسًا كريمًا ونظامًا قويمًا ، يقيها عواصف الأهواء ، وزيغ العبث والعدوان والشهوات .

وإذا كان هناك من يتجر بالدين في عصور التأخر الفكري والاجتماعي ، فليس ذلك ذنب الدين نفسه ، إنما هو ذنب من يريد أن يحيل النور نارًا ، والهدى ظلامًا ، ويعلم الحق ويكتمه ، ويجامل فيه ، ويحاول أن يطفئ نور الله ، ولقد حذر الله تعالى من هؤلاء ، وأنذرهم بعذاب شديد .



وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من إنكار كثير من الفلاسفة والمفكرين لآرائهم الإلحادية، وجهرهم بأن الدين شيء مقدس لا تستغني عنه الإنسانية ولا الحياة ... ففكرة الدين، وعقيدة الله الذي ليس له نهاية، وقدسية الروح، وتنظيم العلاقة بين الله وعباده، كلها أفكار صيغت في الضمير البشري الخفي الذي ليس له نهاية، وإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش على الأرض إذا فقد الإيمان بالدين والعقيدة في وجود الله، ومن آمن بالمادية فقد كفر بالخالق الأعظم، وأسلم نفسه للحيرة والضلال ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

الدين هو مصدر القوة المعنوية في الأمم، ومهذب الأخلاق والنفوس في الجماعات، وكالئ الحق والعدالة والنظام في الإنسانية وقائد الناس إلى الخير، والإيثار والمعروف، وإلى الإيمان والأمن والسلام؛ وإلى العلم والحضارة والعزة والمنعة والسمو الروحي والطمأنينة النفسية.

وهو المرشد إلى الحب والرحمة والإخاء والتعاون، والموجه إلى المثل العليا والفضائل الإنسانية المهذبة، وإلى خدمة البشرية كافة، وأخوة البشرية بشتى طبقاتها وعناصرها وجماعاتها وأممها، والداعي



إلى أداء الواجب والشعور بالمسئولية، وإرضاء الضمير؛ والنأي عن الشبهات، والتضحية بالنفس والمال في سبيل الجماعة وخيرها.

وليت شعري، أي وازع أكثر من وازع الدين، وأي سلطان أكبر من سلطان الإيمان والعقيدة، فإذا ضعف هذا الوازع والسلطان، وذلك الموجه والمرشد والقائد والرائد، فماذا يبقى لنا من خير الدنيا والآخرة.

قد تقولون إن العقل والعلم والمدنية هي كل شيء وفيها كل خير ومنها نستمد القوة والعزيمة والقدرة على العمل.

ولكن ألم تكن فرنسا يوم انهارت قوتها أمام الألمان تأوي من العلم والعقل والمدنية إلى ركن شديد؟

وهل أغنى العلم والعقل والمدنية الأمم عن الانحلال والفناء شيئًا، وهل ردت عادية الشقاء عن ملايين البشر الذين يعيشون في ظلالها في العصر الحديث.

أيها الناس: لن ينقذكم من هذا الشقاء والضعف إلا أن تؤمنوا وأن يكون الله ورسوله أحب إليكم من الدنيا وزينتها، وكل شيء فيها.



أيها الحائرون ؛ لا هداية لكم إلا إذا أدركتم الحقيقة من منبعها الأول ، ومصدرها الأزلي الطاهر الكريم ، تعاليم الدين وشريعة السماء وسنة محمد ﷺ والأنبياء من قبله .

إي وربي لن يعود لحياتنا السلام والأمن والطمأنينة ، إلا إذا رجعنا إلى الدين وعدنا إلى حظيرته المقدسة .

فالدين هو الذي يستطيع أن يدافع عن حق الشعب في الحرية والعدالة الاجتماعية ، ويحمي حقوق العامل والصانع والزارع والتاجر والمرأة ، وهو الذي يدعو إلى تقديس حرية الرأي والفكر ، وهو الذي يهذب الضمير ، ويثقف الوجدان ، ويرقق المشاعر ، ليشعر الناس بالمسئولية ، ويحافظوا على العدل ، وعلى إقامة شرائع المحبة والتعاون والشورى والمساواة الحقة بين الجماهير ، حتى يتألم الرجل لألم أخيه في الوطن ، وصاحبه في الإنسانية ، ويبكي لهموم المحزونين وآلام البؤساء والمساكين ، ويقدس الخدمة الاجتماعية والإيثار ، وينبذ الأثرة والعصبية والمحاباة وراءه ظهريًّا ، ويجعل شعاره : «الوطنية عدل وكرامة ، والحياة حب وتعاون ، والعيش رضا وقناعة والسعادة في محبة الناس وعمل الخير ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلًا» .



من هذا الذي يبكي لبكاء أخيه، ويفي بحقوق الصداقة لصديقه، ويواسي زميله في محنته، ويسعى لخير غيره وإن شقي هو؟ وأين الرجل الذي يضحي اليوم بنفسه في سبيل وطنه، ويؤثر غيره على روحه، ويجاهد في إنقاذ المكروبين، وتفريج هموم المحزونين.

مثل عليا في الخلق والفضيلة والإيمان نعتقدها فلا نجدها، وننشدها فلا نراها، من يوم أن انتهى إيماننا القوي بالله.

لقد كان تشرشل خلال الأزمات العالمية الخطيرة يدعو شعبه إلى الصلاة، وكان «بيتان» ينادي في مواطنيه الفرنسيين في أيام المحنة: أن عودوا إلى الله لأنه خير طبيب روحاني وخاصة في الأزمات.

ونحن اليوم لا نجد من يصيح في الجماهير: أن آمنوا بالله، ليزرع الله في قلوبنا المحبة والتعاون والعدل، وليرع في نفوسنا الرضا والسعادة والفرح؛ ولينبت في أرضنا الطيبة الخير والقوة والكرامة.

وتكفر الماركسية بالدين، ناهجة نهج داعيتها كارل ماركس اليهودي المتطرف، وقد ورث الروح المادي عن أستاذه إنجلز الذي



كان يقول : «إن العالم المادي الذي ندركه بحواسنا ، والذي نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجًا لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمىٰ إنتاج للمادة» ، وتفسير ماركس للمادية هو الأساس الأول الذي يبني عليه الشيوعيون مذهبهم ، فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه ، والمادة تأتي في الصدارة ، ويتلوها العقل ، ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادي له ، لهما السيادة على الحياة الروحية التي هي انعكاس للمادة ، كما يقرران أن العالم بطبيعته مادي ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل علىٰ أشكال مختلفة من المادة في تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتماد بعضها علىٰ بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلىٰ الروح الشاملة[١] .

وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون ، ومن ثم تصر علىٰ إنكار وجود الله ، وكان

(١) راجع : «المذاهب السياسية المعاصرة» (ص٥٢) ، «الدستور السوفيتي» (ص١٤٢) ، «الشيوعية في الميزان» (ص٥٢) .

إنجلز يرجع كل شيء حتى الدين ، والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية[(١)] .

ويفسر هو وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيرًا اقتصاديًا ، وهذا التفسير الاقتصادي للتاريخ ينكر الدين ، وكان ماركس لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين إلا بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : «لا إله والحياة مادة» ، وقوله : «رسالة الطبقة العاملة هي القضاء على الدين والداعين إليه» ؛ وكان «هوبز» يقول : «إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئًا عن وجود الله ، ووجودي الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه» . وكان إنجلز يقول : «لا محل مطلقًا لوجود خالق»[(٢)] .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماركسيين في إنكار الروحيات ، وجحد وجود الله ، ونبذ فكرة الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادي على ضلال مبين ، وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان ،

---

(١) راجع : «الدستور السوفيتي» (ص٣٠ ، ٣١) ، طبعة النهضة (١٩٤٩) .

(٢) «الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية» لفردريك إنجلز .



والذين يؤمنون بهذا الإلحاد في رأي الإسلام مرتدون، يقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق.

إن الدين عنصر من العناصر التي لا تتم الحياة بدونها، وهو رسالة الله إلى الإنسانية، حملها الأنبياء والمرسلون، وأدوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، والفلاسفة والمفكرون الذين لهم خطرهم في الحياة الفكرية في العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله، وكان تولستوي يقول: «إن الدين وحده هو الذي يجعل الحياة ممكنة»، ويقول: «إنني لا أعيش إذا فقدت العقيدة في وجود الله، ولولا أنني كنت أتعلق بأمل غامض في وجود الله لقتلت نفسي من زمان بعيد، عش باحثًا عن الله وإذًا فلن تعيش بدونه؛ وعندما اعتقدت في وجود الله اعتقدت في الكمال الخلقي وفي التقاليد التي تحمل معنى الحياة».

ويقول شوبنهور: «إن فكرة الإله الذي ليس له نهاية وقدسية الروح، والعلاقة بين الله وعباده، كلها أفكار صيغت في الضمير البشري الخفي الذي ليس له نهاية، وهي تلك الأفكار التي لا يمكن لي ولا للحياة البقاء بغيرها».



ويقول رينان : «من الممكن أن يتلاشىٰ كل شيء نحبه إلا التدين فسيبقىٰ أبد الآبدين حجة ناطقة علىٰ بطلان المذهب المادي» .

ويثبت كريسي موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم في نيويورك في كتابه «الإنسان ليس وحيدًا» وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل وينتهي إلىٰ أن الله في كل مكان وكل شيء ولكنه أدنىٰ ما يكون إلىٰ قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه» قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعًا[1] .

وأكد عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له .

ويقول الدكتور راين : «إنه ثبت من أبحاثه في المعامل أن في الجسم البشري روحًا أو جسمًا آخر غير منظور» .

وقال عالم آخر : «إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية الله هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من

---

(١) راجع : «مجلة المختار» عدد فبراير (١٩٤٧) ، مقالة عنوانها : سبعة أسباب لإيمان عالم بالله .



الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود»[(١)] .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمدًا ﷺ والرسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان ، وأن علينا واجب الإيمان بها وبخاتمة هذه الرسالات وهي : دين الإسلام ، وبالكتاب الخالد «القرآن» معجزة هذه الرسالة .

وصدق الله العظيم في قوله : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

إن الدين أمر ضروري للناس ، ولا غنىً للبشر عنه ، إنه هو الذي يهدي الناس إلى الحق والآداب والفضائل والأخلاق والشعائر والشرائع ، وإلى النواميس الصالحة للحياة في الأرض ، وإلى وسائل العزة والكرامة والصلاح في الدنيا .

وهو فوق ذلك يهدينا إلى السعادة في الآخرة ، وإلى الوسائل التي تبلغنا فيها رضاء الله ومثوبته وجناته ونعيمه ورضوانه المقيم .

إننا لن نكفر بالدين . . .

---

(١) راجع : عدد ٢٣/٨/ ١٩٥١ من جريدة المصري .



لنتبع دينًا آخر يدعونا إليه الشيوعيون المحليون اسمه الشيوعية والماركسية والمادية الجدلية .

لقد آمنا بالله ربًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ، وبالإسلام دينًا ، وبالقرآن وحيًا منزلًا من السماء ... ولن نؤمن بغير ذلك ، مهما قال الشيوعيون المحليون .

وصدق الله العظيم حين أمر باتباع الدين ، وفرضه على العالمين ؛ فقال : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٤] .

❊ ❊ ❊



الله . . . رب الكون والحياة

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤١-٤٤].

لا يكف الشيوعيون المحليون عن افتراءاتهم الباطلة، فهم في مجتمعاتهم وفي خلاياهم يدعون إلى الكفر بالله، إلى الإلحاد، إلى الوثنية والشرك والضلال، إلى اعتقاد أن الله خرافة، وأن وجود الله لا حقيقة له، وأن الكون خلقه التطور، وأن الحياة من صنع نفسها لا من صنع إله معبود.

ومع ذلك فإن الشيوعيين المحليين يمجدون ماركس ولينين وستالين تمجيدهم للآلهة، ويعبدونهم من دون الله، ويرونهم لا في مصاف البشر بل في مصاف الإله المعبود.



إن وجود الله أمر قد فرغت منه الإنسانية منذ آلاف الأجيال والقرون، إنه قد استقر في أعماق النفس الإنسانية منذ خلق الله الكون والحياة، إن القرآن الكريم ليعبر عنه أبلغ تعبير فيقول: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨، ١٣٩].

ويقول الله تعالى في إبراهيم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

إن الرجوع في القرن الحادي والعشرين بعد الميلاد إلى النقاش في أمر وجود الله عود إلى الوثنية والشرك والبهتان، ورجوع بالإنسانية إلى القهقرى، وإفك عظيم.

وعلماء الفلك والطبيعة والطب يعرفون من آثار قدرة الله في السموات والأرض ما لا يمكن أن يدع عندهم مجالًا للشك في وجود الله وقدرته وحكمته.



إن الأمواج اللاسلكية التي تسير بأعظم سرعة نعرفها وهي سرعة الضوء وقدرها (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية!! تصل المريخ في دقيقتين، وقد يذهل القارئ إذا علم أن هذه الأمواج تحتاج إلى سنين ومائاتها بل وألوفها لنصل إلى بعض الأجرام الموجودة خارج مجرتنا، وقد لا يصدق بعض الناس إذا قيل لهم إن أقصى السدائم التي نراها في الفضاء تصل إليها الأمواج في (١٤٠) مليون سنة! وسيكشف لنا العلم بوسائله المتعددة عن سدم أبعد من هذه بكثير.

ومن هنا يتبين أن المسافات التي تفصل بين الأجرام السماوية شاسعة جدًّا قد لا يستطيع العقل البشري تصورها، وأن الكون أعظم مما نتصور، وأنه كلما تقدم الإنسان في ميدان العلم تتجلى له عظمة هذا الكون وروعته كما تتجلى غرائبه وعجائبه بما يخلب اللب ويحير الفكر، وهو الدليل القاطع على عظمة الله خالق هذا كله.

ومن يبحث في هذا الكون العجيب المتسع ويمعن في الوقوف على أنظمته والقوانين التي تسيطر عليه يجد أن لا شيء فيه إلا ويسير ضمن دائرة من القوانين لا يتعداها، وأن لكل شيء سببًا، وأن ما يسيطر على أصغر أجزاء المادة يسيطر على أكبرها، فالمادة تتألف من



الجواهر الفردة، وهذه تتألف من كهربائية سالبة تسمى كهرباء، وكهربائية موجبة تكون النواة أو جزءًا من النواة، والكهارب تدور حول النوايا (البروتونات والنيترونات) في أفلاك.

والذي لا ريب فيه أن هذا الكون لم يوجد من تلقاء نفسه إذ لو كان كذلك لما رأينا فيه هذا النظام وهذا التنسيق، بل إن هناك قوة خارقة منسقة منظمة لا يحيط بها عقلنا بل هي تحيط بنا وبهذا الوجود من جميع نواحيه، أوجدت هذا الكون الضخم وجعلته يسير ضمن نواميس ثابتة، ومهمتنا نحن البشر أن نزيد معرفتنا بهذه النواميس ونكشفها، وكلما زدنا معرفة بها زدنا اعتقادًا بقدرة الله الخارقة المنظمة وإيمانًا بعظمته وإبداعه، وظهر لنا بجلاء مقام الإنسان في هذا الكون الذي لم يخلق باطلًا.

إن الإيمان بالله ضرورة عقلية في عصر الذرة الذي نعيش فيه اليوم؛ ولا مفر للإنسان العاقل من الإيمان بالله رب الكون والحياة والبشر أجمعين.

ليقل الشيوعيون المحليون ما يقولون، فإننا لن نترك الإيمان بالله، لنؤمن بماركس ولينين وستالين وسواهم من طواغيت الشرك والكفر والضلال.



وصدق الله العظيم فيما يقول : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .





الفصل الثالث

شريعة التكافل الاجتماعي

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

الإسلام يحث على العمل، ويحارب البطالة، ويفرض ألوانًا من المعاملات التي يشترك فيها الأغنياء والفقراء في ميدان العمل، وتتاح فيها للفقراء فرصة استغلال مواهبهم استغلالًا واسعًا، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة؛ وكالشركة، وكالعمل، والإجارة، والوكالة، وسواها.

فإذا عجز الإنسان عن العمل، فهناك ألوان من المساعدات الاجتماعية التي تؤمنه على حياته، كالزكاة، والصدقة، والإحسان، وكالملاجئ العامة التي تفتح الدولة أبوابها للعجزة والمساكين واليتامى والأرامل، وكأموال الأوقاف العامة للمسلمين التي تصرف في وجوه الخير والبر والإحسان ورعاية شئون الفقراء.

وقرر القرآن الكريم حق الفقراء في أموال الأغنياء: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

والمال في يد الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم عليه، وأوجب رده



على عياله من الفقراء .

ويحث الرسول الأعظم ﷺ على وجوه الخير والبر والإحسان والتضامن الاجتماعي : **«من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»**[١] ، **«الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»**[٢] ، **«من مشي في حاجة أخيه كان خيرًا له من اعتكاف سنين»**[٣] ، **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[٤] ، **«من لا يرحم لا يرحم»**[٥] ، **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**[٦] ، **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»**[٧] ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧/ ٢٢٠) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٥١) : إسناده جيد .

(٤) أخرجه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري (٧٣٧٦) ، ومسلم (٢٣١٩) من حديث جرير رضي الله عنه .

(٦) أخرجه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٧) أخرجه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما .



كما أوصى بالجار أشد وصية وآكدها[١] .

ولقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، المهاجرون الفقراء الذين جردوا من أموالهم وأخرجوا من أوطانهم ، والأنصار الذين كانوا يقيمون في أموالهم وأهليهم وأولادهم ... وكان الإيثار أغلب شيء على المسلمين ، أرأيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه وقد أهديت له هدية ، ومعه في الدار اثنا عشر من أهل بيته ، فقال : اذهبوا بهذه الهدية إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، فذهب بها الوليد بن عبادة فكان كلما جاء أهل بيت قالوا : اذهب بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية إلى عبادة رضي الله عنه .

وقرب الإسلام مع ذلك بين الفقراء والأغنياء ، بالزكاة والإرث والوصية ونظام الوقف وسوى ذلك من التشريعات التي تتجه إلى إنقاذ الفقير وتمكينه من الحياة ورفع مستواه في المجتمع .

وهناك بعد ذلك كله لعلاج الفقر ، والقضاء على الحاجة ، بيت مال المسلمين الذي يلزم بالقيام على شئون الناس ؛ وخاصة الفقراء لسد حاجاتهم ، وكان للفقراء والمساكين والأرامل واليتامى وأبناء

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٥) ، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه بلفظ : **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»** .



السبيل نصيب معلوم يجري عليهم من بيت المال، كما كان لهم نصيب في الغنائم ونصيب في الزكاة.

وكان عمر رضي الله عنه يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ويقول: «والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب، إلا عبدًا مملوكًا، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[1]، وكان الرسول ﷺ يقسم كل ما يرد إليه من مال على المسلمين بالسوية، وكذلك عمر رضي الله عنه، ويروى أن عليًا رضي الله عنه كان يقسم ما في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئًا.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرر في بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة، وأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما دام بدار الإسلام، ولقد رأى ذات يوم يهوديًّا يستجدي، وعلم أنه ألجئ إلى هذا بسبب الجزية والسن

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٢).



والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه في هرمه ، وفي سفره إلى دمشق أمر بمثل هذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجذام فلم يجدوا إلى العمل سبيلًا .

وكان من هذه السياسة العادلة التي شملت المسلمين واليهود والمسيحيين أنه لم يكن في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج ، وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يفرض لهم أيضًا من بيت المال ما يكفيهم ، كما يفرض لولي كل طفل رزقًا يعينه على تنشئته وتربيته .

وأخرج الطبري عن حبيب عن أبي وائل قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين»[(١)] .

كما قرر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما أخرجه الطبري عن السائب بن يزيد رضي الله عنه أنه ما من أحد إلا وله في مال الدولة حق يتقاضاه وفقًا للقرآن والسنة ، «فالرجل وبلاؤه ، والرجل وقدمه ، والرجل

(١) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٥٧٩) .



وغناؤه وكفايته، والرجل وحاجته»[١].

ويقول الإمام ابن حزم في كتابه «المحلى»: «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، ولا تفي سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة».

وروي بالسند الصحيح: **«من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»**[٢]، ثم يقول: **«ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»**[٣].

ويروى أيضًا بالسند الصحيح عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أن أصحاب الصفة كانوا ناسًا فقراء، وأن رسول الله ﷺ قال: **«من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس»**[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٥٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٢)، ومسلم (٢٠٥٧) من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.



ويروىٰ كذلك : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**»[(١)] ، ثم يقول ابن حزم : ومن تركه يجوع ويعرىٰ -وهو قادر علىٰ إطعامه وكسوته- فقد أسلمه . والنصوص من القرآن والأحاديث تكثر جدًّا .

وينقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسنده : «إن الله تعالىٰ فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم ، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فيمنع الأغنياء ، وحق على الله تعالىٰ أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه»[(٢)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : «في مالك حق سوىٰ الزكاة»[(٣)] ، وعن ابن عمر والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم أنهم قالوا كلهم لمن سألهم : «إن كنت تسأل في دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع ، فقد وجب حقك»[(٤)] ؛ وصح عن أبي عبيدة وثلاثمائة من الصحابة أن اجتمعوا فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم في

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .
(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٧/ ٢٣) .
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٨٤) .
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٤٢٦) .

مزودين، وجعل يقوتهم إياها على السواء[١]، فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة رضي الله عنهم، لا مخالف لهم منهم.

وصح عن الشعبي ومجاهد وطاوس وغيرهم كلهم يقول: «في المال حق سوى الزكاة»[٢].

ويقول ابن حزم: «ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير، وهو يجد طعامًا فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمي، لأن فرضًا على صاحب الطعام إطعام الجائع، فإذا كان كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير، وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل فعلى قاتله القود، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه منع حقًّا، وهو طائفة باغية، قال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٦١)، ومسلم (١٩٣٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٤١١، ٤١٢).

(٣) راجع: كتاب ابن حزم «المحلى» (ص١٥٦-١٥٩)، (ج٦).



ويروي أحمد وأبو داود عن الرسول صلوات الله عليه : **«المسلمون شركاء في ثلاثة : الماء والكلأ والنار»**(١) .

وروى البخاري عن جابر ورافع رضي الله عنهما : **«من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه»**(٢) .

وروى مثله مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه(٣) ، وروى أحاديث في هذا المعنى أبو داود والنسائي(٤) .

ويروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : **«من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له ، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»**(٥) .

فهل بعد ذلك نظام أكمل للضمان والتأمين والتكافل الاجتماعي من هذا النظام؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٧٧) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٤١ ، ٢٦٣٣) .

(٣) أخرجه مسلم (١٥٤٤)

(٤) أخرجه أبو داود (٣٣٩٥) ، والنسائي في «المجتبى» (٣٨٧٦) .

(٥) أخرجه مسلم (١٧٢٨) .



الحيوان، وعزه بالشرائع والأديان، أو يعجز الإنسان أن يكون كالحيوان الأعجم في باب الاقتصاد؟ ولقد أمرنا الله تعالى بالاقتصاد فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ثم قال في آخر الآيات: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

والاقتصاد في المال أن يجعل الإنسان في ماله جزءًا للإنفاق وجزءًا للادخار: أما ما يجعله للإنفاق فيجب أن يكون معتدلًا ملائمًا لدرجة معيشته، وافيًا بما عليه من الحقوق، حافظًا لناموسه وكرامته، فإن زاد كان مبذرًا مأزورًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]، وإن نقص كان مقترًا بخيلًا محتقرًا ذليلًا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].



وصدق رسول الله ﷺ في قوله : «ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة»[١] .

* * *

(١) أخرجه البزار «البحر الزخار» (٧/ ٣٤٩) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤٤٣) : رواه البزار من رواية سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم هذا لم أجد من ذكره ، إلا ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه ، وبقية رجاله ثقات .

مهاجرون وأنصار

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قال الله تعالى في كتابه الحكيم في قصة الهجرة ونصره لرسوله ﷺ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال في شأن الأنصار: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

كانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة، إيذانًا ببدء عصر جديد في تاريخ العالم؛ وعاملًا قويًا في رقي الإنسانية ونهضتها، وحدًّا فاصلًا بين الوحشية والمدنية، والعبودية



والحرية، والجهل والمعرفة، والظلام والنور.

ففي المدينة بعد الهجرة بقليل، بدأ الرسول ﷺ يبشر بحقوق الإنسان ويرفع من كرامته في الحياة، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد والاستعباد والاستغلال، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوي الكفاية من كل أمة ولون، ويشرع أصول الحكم العادل، ويضع مناهج التقدم الروحي والاجتماعي، ويعلن أن للمحكومين ما للحاكمين، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد ... ووجد الرسول ﷺ نفسه أمام ثلاث طوائف في المدينة:

أولاها: طائفة المهاجرين الفقراء، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلبًا للحرية، وفرارًا من الطغيان، فهاجروا من مكة إلى المدينة، فرادى وجماعات، بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام، وكان أغلبهم يعمل بمكة في التجارة يكسب منها الأموال الطائلة، ويصفهم الله تعالى في القرآن بقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ويصف الطبقة التي تلتهم في الهجرة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا



ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] .

والطائفة الثانية : هم الذين أحبوا الرسول ﷺ ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه؛ من الأوس والخزرج سكان المدينة، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة، وكانوا ذوي عدد وثروة، ووصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] .

والطائفة الثالثة : يهود المدينة، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج، وسخروا برسالة محمد ﷺ وبأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع، فيه الفقراء والأغنياء، والمفسدون والمتآمرون، لا بد فيه من بناء جديد، وحركة بعث وتجديد، فماذا فعل محمد صلوات الله عليه، بدأ الرسول ﷺ يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد، وعقل حصيف، وسياسة حكيمة .



طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم، في وثيقة سياسية بارعة، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ليضمن سلامة الدولة وأمنها.

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد في الثروة، بين الأغنياء والفقراء، وبين الأنصار والمهاجرين، فآخى بينهم إخاء فريدًا في تاريخ الإنسانية، إخاء مودة وتعاون وإخلاص، فكان يأخذ بيدي المهاجري والأنصاري ويقول: **«تآخيا في الله أخوين»**.

قال ابن هشام: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجري والأنصاري، فقال: **«تآخوا في الله أخوين أخوين»**[(1)]، فكان الرسول ﷺ وعلي ابن أبي طالب أخوين، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين، وجعل رسول الله ﷺ من نفسه مثلًا يحتذى في الزهد والإيثار والكرم.

قالت عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض[(2)].

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).



وذهب الرسول ﷺ يعود ابنته فاطمة في بيت زوجها علي بن أبي طالب فقال: **«السلام عليك يا بنتاه، كيف أصبحت؟»** قالت: أصبحت والله وجعة؛ وزادني وجعًا أني لست أقدر على طعام آكله، حتى أجهدني الجوع، فبكى رسول الله ﷺ، وقال: **«لا تجزعي يا بنتاه، فوالله ما ذقت طعامًا منذ ثلاث، وإني لأكرم على الله، ولو سألت ربي لأطعمني، ولكني آثرت الآخرة على الدنيا، أبشري، فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة»**[1].

وحمل إليه صلوات الله عليه في يوم تسعون ألف درهم فوضعها على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلًا حتى فرغ منها وعاد لا يمسك منها درهمًا.

وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعًا كريمًا في فضيلة الإيثار، نزل برسول الله ﷺ ضيف، فلم يجد عند أهله شيئًا فدخل عليه رجل من الأنصار، فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته أن تطفئ السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل حتى أكل الضيف الطعام،

---

(١) انظر: «الاستيعاب» لابن عبدالبر (١/ ٦١٣).



فلما أصبح قال رسول الله ﷺ : **«لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم»**[(1)] .

وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه في الدار اثنى عشر من أهل بيته ، فقال عبادة : اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، قال الوليد بن عبادة : فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون : اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية ثانية إلى عبادة[(2)] .

وحرم رسول الله ﷺ الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، ودعا الأغنياء إلى التنازل لإخوانهم الفقراء عن بعض ما يملكون من أرض هبة ومنحة ، فقال : **«من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه»**[(3)] ، وقال : **«من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه»**[(4)] ، وقال : **«لأن يمنح الرجل أخاه أرضه خير له من أن يأخذ عليها خرجًا**

---

(1) أخرجه البخاري (٤٨٨٩) ، ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٢٠١) .

(3) أخرجه مسلم (١٥٣٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

(4) أخرجه مسلم (١٥٣٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

معلومًا»[١]، ودعا إلى الرحمة والبر والخير والتعاون والمساواة.

هذا هو الرسول الكريم؛ وهؤلاء هم المسلمون حقًّا، من الأنصار والمهاجرين، من بناة مجدنا الخالد، والدعاة إلى خيري الدنيا والآخرة، وممن لم يفتنهم المال، ولم يلههم زهرة الحياة الدنيا، وكانوا مع الله فكان الله معهم، وممن أدوا الحقوق، وجعلوا أنفسهم في خدمة إخوانهم في الله والوطن.

وما أحوجنا اليوم أن نسير على ضوئهم، ونستهدي بهدي رسولنا الأعظم، ونساعد الدولة في خدمة الشعب وبناء الأمة وضمان الحياة الكريمة للفقراء، وأن يؤثر أغنياؤنا الفقراء على أنفسهم، ولا يبخلون بمالهم في سبيل الله والمعروف.

وإني لا أجد في ختام هذه الكلمة أبلغ من قول الإمام أبي حامد الغزالي في «الإحياء»: «إن على الإنسان في ماله أن يعرف مقصود المال، وأنه لماذا خلق؟ وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب، فلا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحق، وعليه أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام، كمال السلطان، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في

(١) أخرجه البخاري (٢٣٣٠)، ومسلم (١٥٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



المروءة، كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وأن لا يستكثر من المال ولا يستقل منه، بل القدر الواجب، ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم».

* * *



الحرب الخالدة المقدسة

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

من بين الذكريات الخالدة على الزمن، الباقية على مر الأجيال، التي تهز مشاعر الإنسانية هزًّا عنيفًا متواصلًا، ذكرى هذه الحرب المقدسة التي أعلنها محمد صلوات الله عليه على الفقر، عدو البشرية اللدود، وخصمها الجبار، الذي حارب الإنسان في حياته وسعادته وأمنه دون تردد أو إشفاق.

والفقر كثيرًا ما يكون سببه سوء توزيع الثروة بين الناس، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها، أو جدب الأرض وقلة خيراتها.

ولقد نظر محمد ﷺ إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة بعقل المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول، مع صعوبة التغلب على الفقر في بيئة كبيئة الصحراء، وفي مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء.

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف، ولاستعباد الفقراء، وتسخير الضعفاء، فحارب محمد ﷺ



هذه الفكرة الخاطئة، وأعلن أن المال إنما هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وكسوة العاري وإسعاد الناس، ووديعة الله في أيدي الأغنياء، ومال الله استخلفهم عليه، وجعل من سنة الإنسان المهذب في الحياة الإيثار لا الأثرة، والإعطاء لا الأخذ، والقناعة والرضا والشكر لا الجشع والطمع والسخط والجحود.

وكان الأغنياء لا يعرفون في المال حقوق الله والفقراء والمساكين، فطالبهم محمد ﷺ بما طالبهم به القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

ونهاهم عن البخل والإمساك والشح والتقتير، فقال صلوات الله عليه: **«إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩٨)، وأحمد (٢/ ٤٣١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.



ومدح المؤمنين : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج : ٢٤، ٢٥] .

وفرض حق الضيف وابن السبيل ، وجعل ﷺ البر واجبًا ، والإحسان فريضة ، والصدقة شريعة اجتماعية ، والزكاة أمرًا محتومًا لمصلحة المجتمع كله .

ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس ، وجعل أساسها الأسرة ، وفرض على الرجل حقوقًا يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله ، وطالبه بأن يرعىٰ أبناءه حق الرعاية ، ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة ، وحث على القناعة والاقتصاد ، فقال صلوات الله عليه : **«طوبىٰ لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به»**(١) ، وقال : **«ما عال من اقتصد»**(٢) .

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات ، فدعا إليها الرسول ﷺ وحض عليها ونادىٰ بها ، وسن كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٩) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٤٤٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .



والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها : لكي تتداول الأيدي المال، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصدًا للربح والكسب الحلال.

ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل، وقرر محمد ﷺ حرمة المال، فقال: **«كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»**[(١)]، ودعا إلى اكتساب الأموال من طرقها المشروعة فقال: **«من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»**[(٢)].

وعمل على حفظ كرامة الفقراء ففضل صدقة السر، وحض على ترك المن والأذى وكره السؤال وحرمه عن غير حاجة، وجعل اليد العليا خيرًا من اليد السفلى ... وحبس محمد ﷺ الأموال -التي تؤخذ من الفيء، والخراج، والجزية، والغنائم والعشر والركاز وسواها- على مصالح الفقراء والتمكين لهم في الحياة والمعيشة، وحرر رقيق الأرض من العبودية، وطالب باحترام حقوق الرقيق

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٩٤): أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الذي أسر في حرب مشروعة، وبالعمل على تحريره، كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال.

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعًا عادلًا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين، وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء في أموال الأغنياء، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حظه الكامل في الحياة مع مرور الأيام، وبتقسيمه العادل للميراث بين أولي الأرحام، وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم، ونهى عن كنز المال دون أداء حقوقه وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه، حتى قال رسول الله ﷺ لبلال: **«الق الله فقيرًا ولا تلقه غنيًا»**[(١)].

وحث على الجود والبذل والسخاء، وكان ﷺ كما وصفه علي رضي الله عنه أجود الناس كفًا، وكما وصف في حديث البخاري: **«فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة»**[(٢)]، وتقول عائشة رضي الله عنها: **«ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو**

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٥٢) من حديث بلال رضي الله عنه، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

شئنا لشبعنا، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا»[١].

ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال: **«أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعًا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى»**[٢]، ونهى عن المحاباة في كل شيء حتى في اختيار الموظف، فقال صلوات الله عليه: **«من ولي من أمر المسلمين شيئًا فأمر عليهم أحدًا بمحاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا حتى يدخله النار»**[٣]، كما نهى عن الخيانة في الأموال العامة فقال: **«من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»**[٤]، أي خيانة.

---

(١) أخرج الشطر الأول: مسلم (٢٩٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والبخاري (٥٣٧٤) بلفظ: «ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام حتى قبض»، وأخرج الشطر الثاني: البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٧٣) بلفظ: «لو شئنا أن نشبع لشبعنا، ولكن محمدًا ﷺ كان يؤثر على نفسه».

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٠٤)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٩٤٣) من حديث بريدة رضي الله عنه.

ولقد حبب محمد ﷺ الناس في الكسب الحلال المشروع، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات، وقال لهم: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»**[١]، وجعل بيت المال في خدمة الناس، والفقير من بينهم خاصة، ولم يكن لرسول الله ﷺ بيت مال يضع فيه الأموال، وإنما كان يضعها في بيته وبيوت أصحابه، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان له أموال الصدقات، ومعيقب بن أبي فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم، وكان حذيفة بن اليمان يكتب لرسول الله ﷺ خرص تمر الحجاز، وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد في رزقهم؛ فاستعمل عتاب بن أسيد الأموي واليًا على مكة وجعل رزقه كل يوم درهمًا، وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء، وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوي بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذي كان غالبًا على جزيرة العرب.

وقد دعا ﷺ إلى اصطناع الأيادي عند الفقراء يقول: **«أكثروا من معرفة الفقراء، واتخذوا عندهم الأيادي، فإن لهم دولة»**، قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: **«إذا كان يوم القيامة قيل لهم:**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث عائشة وأنس رضي الله عنهما.

انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبًا، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة»[١] .

وجعل الرسول الأكرم ﷺ في كل معروف وكل عمل صدقة فقال : **«كل معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة، وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة، والدال على الخير كفاعله، والله يحب إغاثة اللهفان»**[٢] ، ورفع من منزلة الفقراء ولم يجعل المال أساسًا للحكم على الأشخاص .

ولقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس، ورفع من الفقراء والمستضعفين ذوي الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل في الدولة الإسلامية، مما قلب الأوضاع في توزيع الثروات بين الناس وأنصاف الفقراء، وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه الإنسانية في أروع صورها، والمثل الأعلى في أمجد مظاهره، والقائد المظفر الذي خاض معركة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٩٧) بمعناه .

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦/ ١١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

السلام وانتصر فيها، والنور الأبدي الخالد الذي هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى، إلى الأمن والهدوء والاستقرار.

وكانت حياته كلها كفاحًا مجيدًا في سبيل الله والحق والمعروف وتقرير حريات الفقراء وكراماتهم، وكانت جهادًا صادقًا وجهته الخير وإسعاد الناس، ومن أجل ذلك توج هذا الجهاد بالنصر، وهزت ذكرياته مشاعر الناس والجماعات والشعوب في كل مكان وجيل، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا، ونشيد الحياة، وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحي المقدس والناموس السماوي الحكيم.

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يجعل الفقراء والأغنياء إخوانًا متحابين متآخين متعاونين، وأن يقيم في المجتمع الإسلامي اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادئ الروحية والمثل العليا وتجعلها أساسًا من أسس الاقتصاد التعاوني الجماعي في الدولة الإسلامية الناشئة، واستطاع بما بذره من بذور الخير في الأرض أن يقضي على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة والاضطراب والقلق بين الطبقات ... وكانت ثورة محمد ﷺ الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف، وكفالة حريته وحقه في الحياة الهانئة الكريمة



وهدم كل الصروح التي أقيمت ظلمًا وبهتانًا بأيدي الإقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

ولا تزال هذه المبادئ الكريمة ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحي الخالد ، الذي يعد مفخرة من مفاخر البشرية في نهضتها وتوثبها إلى الكرامة والحرية .





العمل في شريعة الإسلام

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

للعامل مكانة كبيرة في الأمة، فهو دعامة الإنتاج، وعنصر من عناصر النشاط الاقتصادي، واليد المحركة لمرافق الدولة.

وقديمًا نشأ كثير من الأنبياء في بيئة الأعمال، وتدرج الله بهم من حياة العمال إلى حياة النبوة والرسالة، فموسى عليه السلام قضى ثماني حجج أو عشرًا عاملًا في مال شعيب، وداود عليه السلام كان يعمل ويأكل من عمل يده، فكان يقوم بصناعة الدروع ويعيش على ما يكسبه من هذه الصناعة، ومحمد رسول الله صلوات الله عليه قضى صدر شبابه وطرفًا من أيام رجولته عاملًا في مال خديجة رضي الله عنها سيدة قريش ثروة وجاهًا، وقد عنيت الأديان القديمة والقوانين الحديثة بتشريعات العمل وقوانين العمال.

وفي الشريعة الإسلامية عناية بالعامل وحقوقه، وتتجلى هذه العناية بوضوح في كثير من مسائل التشريع الإسلامي، والأصول العامة التي تهدف إليها الشريعة الإسلامية في هذا الباب يمكننا أن نلخصها فيما يلي:



أولًا: حفظ كرامة العامل وإنسانيته وشخصيته في الحياة، فالعمل ليس ذلًا وهوانًا؛ بل هو وسيلة الحياة الشريفة لكثير من أفراد الأمة، وهو ركن الحياة الاقتصادية، لذلك كان من الحتم أن يقدر أصحاب الأموال شخصية العامل وكرامته وإرادته ويحافظوا عليها لا أن يضعوه موضع الذليل المسخر أو العبد المهان، وفي مبادئ الإسلام نصوص كثيرة تؤيد هذا، وكان كثير من العمال يشترطون على صاحب العمل ذلك، كما يروى أن قومًا ضلوا الطريق فاستأجروا أعرابيًا ليدلهم عليه، فقال: إني والله لا أخرج معكم حتى أشترط لنفسي، قالوا: فماذا تشترط لنفسك؟ قال: يدي مع أيديكم في كل ما تتناولون وتعملون، وذكر والدي عليكم محرم.

ثانيًا: تقدير مجهود العامل تقديرًا قائمًا على الإنصاف وعلى الحدب عليه، فلا يجوز في نظر الشريعة الإسلامية التي توجب معونة العامل أن ينتهز أصحاب الأعمال فرصة حاجته الشديدة إلى العمل فيبخسوه حقه ويغبنوه في تقدير أجره الذي يستحقه نظير عمله، ولا بد أن يكون ضامنًا لنتيجة مجهوده وكده، ولذلك منعت كثيرًا من المعاملات التي لا يتحقق فيها ضمان العامل لأجره عند عقد العمل، وهذا



هو علة منع جواز إعطاء الأرض للعامل يزرعها على أن يكون أجره مما يخرج منها، لجواز أن لا تخرج الأرض محصولًا، وإن كان كثير من الشرعيين الإسلاميين أجازوه لما فيه من تبادل المنفعة بين الناس، وللثقة الغالبة بإعطاء الأرض ثمراتها، كما لا يجوز أن تكون أجرة العامل في عقد العمل مجهولة القدر؛ بل لا بد أن تكون معلومة معينة ليعمل العامل على أساس واضح وليرفع عنه الحيف، وفي الحديث: **«من استأجر أجيرًا فليعلمه أجره»**[(١)].

وتحث الشريعة الإسلامية دائمًا أصحاب الأموال على ترك الطمع في أجرة العمال وعلى أدائها لهم كاملة، وتعدهم بذلك خيري الدنيا والآخرة، وفي الحديث عن رسول الله صلوات الله عليه: **«أن ثلاثة أووا إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفجرت الصخرة، فكان مما دعا الله به أحدهم أن قال: اللهم إني استأجرت عمالًا فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاء بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك**

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من الإبل والبقر والغنم، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فلم يترك منه شيئًا»[١].

وتلزم الأجرة بتمام العمل، أو بشرط العامل دفعها قبل العمل، بشرط التمكن من الحصول على المنفعة، أي العمل المقصود.

ثالثًا: عدم إرهاق العامل وإعناته في العمل، وفي الحديث الشريف: **«ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم»**[٢]، وقال شعيب لموسى عليهما السلام حين اتفقا على أن يعمل له موسى في ماله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ [القصص: ٢٧].

فإذا أدى تصرف أصحاب الأموال إلى إرهاق العامل إرهاقًا يضر بصحته فللعامل حق فسخ العقد، وله أن يرفع الأمر إلى المسئولين لدفع هذا العنت ... رفع الأمر إلى أولي الأمر، والتحكيم حين الخلاف، وإنصاف من هو بحاجة ماسة إلى الإنصاف، قاعدة مقررة في شريعة الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

رابعًا : حرية العامل في الأعمال المالية أحيانًا ، فلا يجوز أن يحجر رب المال في حرية العمل على من وكل إليه استثمار ماله ، فلا يصح أن يشترط عليه أن لا يتعامل إلا مع أناس معينين أو في مكان خاص ، وذلك لأن المستثمر ما دام مأنوسًا فيه الكفاية والمقدرة على الاستثمار فلا يصح أن تقيد مواهبه ؛ لأن هذا التقييد يكون أحيانًا عائقًا دون غاية ما يريد من الحرية في الاستثمار أو معطلًا لمواهبه الاقتصادية في سبيل الربح .

خامسًا : دعوة الأغنياء الذين لا يقدرون على استثمار أموالهم ، إلى إعطائها للقادرين على ذلك ممن ليس لهم مال ، بشرط أن يؤنس فيهم الأمانة وحسن التصرف والصدق والإخلاص ، قضاء على مشاكل البطالة ، ولذلك شرعت الشريعة الإسلامية تشريعات كثيرة من هذا القبيل كالمزارعة والمساقاة وسواهما .

سادسًا : العامل ليس ضامنًا للمال إذا هلك في يده بدون تعد منه أو تقصير في حفظه ، أما إذا هلك بتعديه فعليه الضمان وهو مسئول ، فإذا شرط رب المال على العامل أن يكون ضامنًا لرأس المال إذا هلك في يده بدون تعد أو تقصير فسد عقد العمل .



سابعًا: حق العامل في فسخ العقد: للعامل الحق في فسخ عقد العمل في أحوال كثيرة، منها: أن يصيبه مرض يحول بينه وبين المضي في العمل أو أن يكون وقت العقد صبيًّا مميزًا ثم أدركه البلوغ، أو أن يشترط رب المال عليه ضمانه رأس المال إذا هلك في يده، أو أن يخل رب المال بشرط من شروط عقد العمل، إلى غير ذلك من المبررات.

ثامنًا: العامل وحق التعويض: وللعامل الحق في أخذ تعويض من رب المال في بعض أحوال، منها:

أ - أن يتعدى عليه رب المال فيتلف عضوًا من أعضائه مثلًا.

ب- أو أن يكون العامل لم يبلغ سن البلوغ بعد، فإذا أصابه ضرر أو هلك أثناء عمله الذي استؤجر له فإن المستأجر يكون مسئولًا عنه، فإذا قتل الصبي خطأ كأن وقعت عليه جدران المصنع الذي يعمل فيه فديته على عاقلة رب المال وعلى رب المال الأجر الذي كان يستحقه المقتول، وإذا أصيب بشيء من الضرر كان عليه التعويض، أما إذا كان العامل رجلًا عند عقد العمل فليس له حق التعويض؛ لأنه مميز مسئول عن نفسه، وقد قبل العمل بعد أن رآه وعرف تبعاته، وإن



كان من الإحسان في المعاملة مساعدة رب المال بأداء تعويض مناسب لما أصابه، ولولي الأمر أن يحكم بما يراه من ذلك التعويض، وللإحسان في المعاملة في الإسلام نصيب كبير.

تاسعًا: لا يصح لرب المال أن يعقد عملًا مع صبي غير مميز ولا مع مجنون، لأنهما لا يعرفان التبعات ولا تلزمهما مسئولية، حيث لم يدركا حد التمييز.

عاشرًا: ليس لرب المال أن يقصي العامل عن عمله إذا نقصت مقدرته على الإنتاج بمرض لحقه من جراء العمل أو بسبب هرم أو شيخوخة لحقته بعد أن قضى شبابه وأوقات نشاطه الحيوي في العمل لرب المال.

ويرمز إلى هذه القاعدة حديث عن رسول الله صلوات الله عليه معناه، أن رجلًا أرهق جملًا له في العمل فهرم فأراد أن يذبحه ليستريح من عبء مئونته، فقال صلوات الله عليه: «**أكلت شبابه حتى إذا هرم أردت أن تنحره**»[1]، فتركه الرجل.

الحادي عشر: حق العامل في الراحة الأسبوعية.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٧٣) من حديث يعلى بن مرة رضي الله عنه.



ففي الفقه الإسلامي لو استأجر رجل يهوديًّا شهرًا كاملًا كانت أيام السبوت مستثناة من العمل، هذا هو الحكم والعامل يهودي، وكذلك إذا كان نصرانيًّا فله إجازته الأسبوعية (الأحد) ... فما بالك به لو كان مسلمًا؟

هذه هي بعض حقوق العامل التي يقرها التشريع الإسلامي وينفذها، ولكن الواجب على العامل بعد ذلك كثير.

❋ ❋ ❋



الإسلام والعدالة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

يقول الإعلان العالمي الأخير لحقوق الإنسان، الذي وضعه أعلام الفكر البشري في القرن العشرين، ما نصه: «لكل متهم بجرم الحق في أن تفرض براءته، حتىٰ يثبت جرمه قانونًا في محكمة علنية، تؤمن له فيها جميع الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه» ... وهذا هو نفس ما أوجبه الإسلام من نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان، من أن المتهم بريء حتىٰ تثبت إدانته، ومن عدالة القضاء، وحق المتهم في الدفاع عن نفسه.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه من رسالته إلىٰ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين ولاه قضاء البصرة، أي من نحو ألف وثلاثمائة وستين عامًا هجريًّا تقريبًا: «أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، آس -أي سو- بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتىٰ لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك ...»(١).

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرىٰ» (١٠/ ١٥٠).



ويقول علي رضي الله عنه من عهده إلى الأشتر النخعي والي مصر من قبله : «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم ؛ ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أرخص حجته ، وكان لله حربًا ، حتى ينزع ويتوب ، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم ... واختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه ... أوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأسرعهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، ثم تعاهد قضاءه ، أكثر له في البذل مما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتياب الرجال له عندك ، فانظر في ذلك نظرًا بليغًا ، فإن هذا الدين قد كان أسيرًا في أيدي الأشرار ، يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا»[١] .

---

(١) انظر : «صبح الأعشى» للقلقشندي (١٠/ ١٩) .

وعن علي بن أبي رافع، قال: «كنت على بيت مال علي بن أبي طالب وكاتبه، فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة؛ فأرسلت إليَّ بنت علي بن أبي طالب، فقالت لي: إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به في يوم الأضحى، فأرسلت إليها عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين، فقالت: نعم، عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام، فدفعته إليها، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه، فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟ فقالت: استعرته من ابن أبي رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين لأتزين به في يوم العيد ثم أرده، فبعث إليَّ أمير المؤمنين، فجئته، فقال لي: أتخون المسلمين يا ابن أبي رافع، فقلت: معاذ الله أن أخون المسلمين، فقال: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين: إنها ابنتك، وسألتني أعيره لها تتزين به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن ترده سالمًا إلى موضعه . . . فقال: رده من يومك، وإياك أن تعود إلى مثله، فتنالك عقوبتي، ثم قال: ويل لابنتي، لو كانت أخذت العقد على غير عارية مردودة مضمونة، لكانت إذن أول هاشمية قطعت يدها في سرقة، فبلغت مقالته ابنته، فقالت له: يا أمير المؤمنين: أنا ابنتك وبضعة منك، فمن أحق



بلبسه مني؟ فقال لها: يا بنت ابن أبي طالب: لا تذهبي بنفسك عن الحق، أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في مثل هذا العيد بمثل هذا... فقبضته منها، ورددته إلى موضعه».

وكتب عمر رضي الله عنه إلى عامله أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: قد بلغ أمير المؤمنين أنه نشأ لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك، ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون البهيمة التي مرت بواد خصب، فلم يكن لها همة إلا السمن، وإنما حتفها في السمن، واعلم أن للعامل مردًّا إلى الله؛ فإذا زاغ العامل زاغت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته[(١)].

ويروى أن أبا يوسف حين حضرته الوفاة قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أمل في قضائي إلى أحد الخصمين حتى بالقلب، إلا في خصومة النصراني مع الرشيد، ولم أسو بينهما، وقضيت على الرشيد، ثم بكى».

وهناك مآثر مروية كثيرة لقضاة المسلمين وخلفائهم في تحري العدالة، وإنصاف المظلوم، وهي مفاخر تشهد بعدالة الإسلام، وعظمة مبادئه؛ وسمو أهدافه، وجلال غاياته.

---

(١) عزاه صاحب «كنز العمال» (٥/ ٩٨٨) للدينوري.



إن العدالة في الإسلام لم تقف عند غاية، ولم تنته إلى حد، ولم يستثن من حكامها فرد أو طائفة أو عنصر أو شعب، ولا اعتبار الفتح والغلبة والسيادة.

عدالة، العالم في حاجة إليها الآن، لنقضي على الفوضى، ويشيع الأمن والسكينة والهدوء والنظام والرضا، وينبعث الاطمئنان النفسي في كل إنسان، وما أجل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾، وما أجل قوله تعالى في الحديث القدسي: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»**(١).

ولما قال أعرابي لرسول الله ﷺ: اعدل، قال له: **«ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.



ولما قال له أعرابي آخر: ومن أحق بالعدل من رسول الله؟ قال: **«صدقت، ومن أحق بالعدل مني؟»**[١].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٣٣)، و«الأوسط» (٥/ ١٨٧) من حديث خولة بنت قيس رضي الله عنها، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٤٩): فيه حبان بن علي وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون.

خاتمة

«الرد على المشركين» هذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء، يتناول كثيرًا من أصول الدراسات الإسلامية، ويبين حقائق كبيرة الأهمية في حياة الإنسان والمجتمعات والشعوب على طول الأجيال والقرون.

ولقد فندت فيه الكثير من أكاذيب الشيوعيين، مشركي اليوم، الذين يحاربون الأديان والرسالات، وينكرون وجود الله ويهرفون بما لا يفهمون، كما شرحت فيه كثيرًا من حقائق الإسلام وأصوله، وخاصة في الجانب الاقتصادي؛ ليتضح للشباب الإسلامي أن ديننا الخالد السماوي العظيم أعرق أصلًا، وأثبت قدمًا في حرب الفقر، وعلاج مشكلات المجتمع، وأنه سبق المذاهب الأخرى، وحل مشكلات الطبقات الفقيرة والمحرومين، قبل ماركس ومن سواه بعشرات القرون؛ أعدل حل، وبأوسط رأي، ولأكرم مذهب ووجهة.

إن الإسلام ديننا السماوي الكريم، يغنينا في حاضرنا ومستقبلنا، كما أغنانا في ماضينا، عن المذاهب الشيوعية الإلحادية، التي تزعم



أنها تحارب الفقر، وتقضي على مشكلات الحرمان؛ وباسم هذه الدعاية تريد أن تنقلنا من ساحة الإيمان إلى حظيرة الشرك والإلحاد، وتريد أن تجعلنا عبيدًا لماركس وأفكاره الآثمة، وتريد أن تستعيض بالله إلهًا آخر مخيفًا رهيبًا اسمه «الماركسية» و«البلشفية» و«اللينينية»؛ إلى آخر هذه الأسماء.

ونحن هنا نقول ما قاله القرآن الكريم، كتاب الله الحكيم من قبل: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

المؤلف

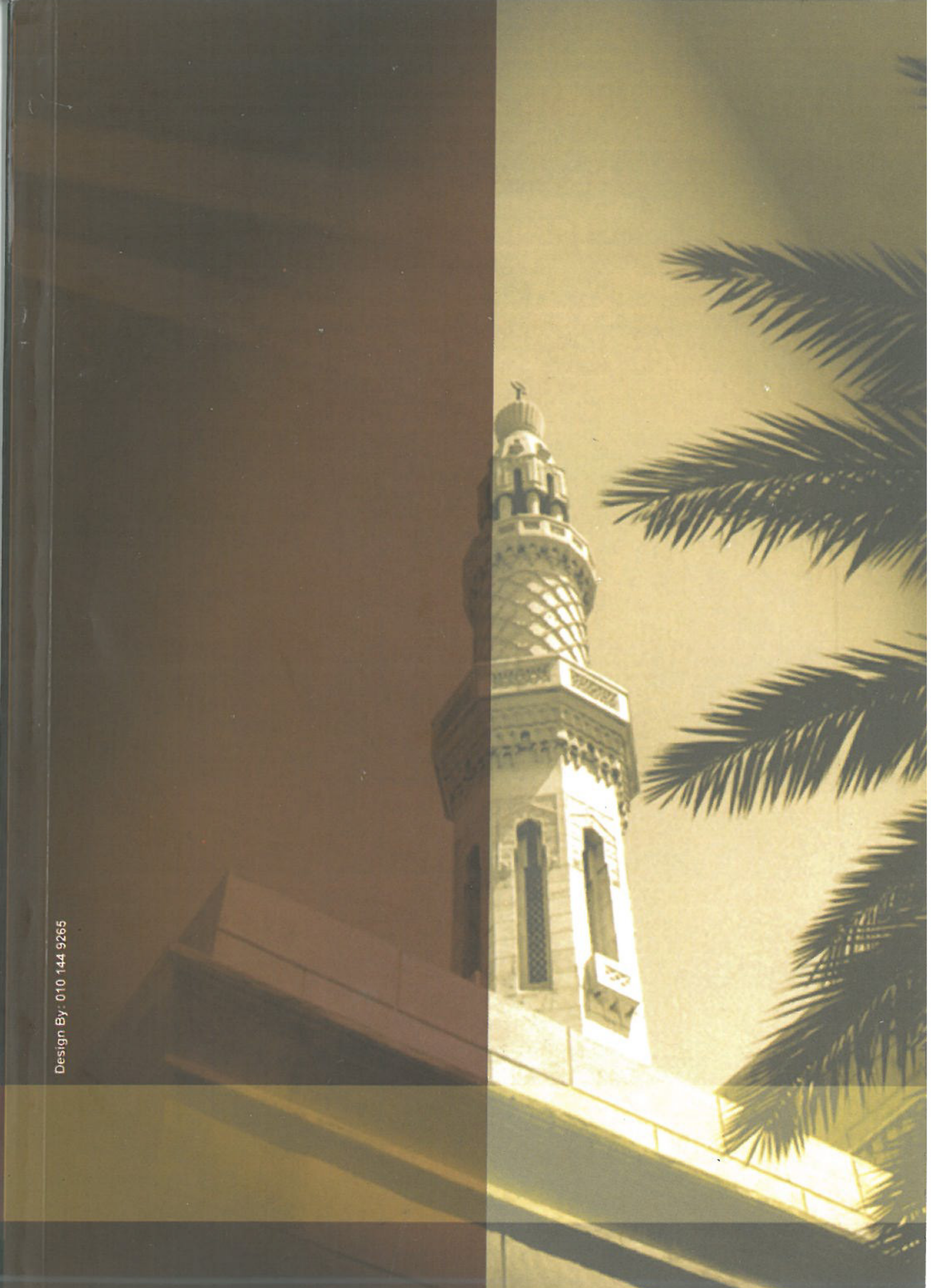
أ.د/ **السيد عبد الحليم محمد حسين**



الفهرس

الموضوع	الصفحة
تصدير	٣
بين يدي هذا الكتاب	٦
الفصل الأول	١١
الإسلام أول وثيقة لحقوق الإنسان	١٣
مثلنا الأعلى	١٧
دعوة إلى السلام العالمي	٢٥
الأصل الأول للإسلام	٣٠
الفصل الثاني	٣٥
القرآن كتاب الله	٣٧
أدلة التوحيد في القرآن	٤٧
وأدلة التوحيد في القرآن الكريم ظاهرة واضحة كثيرة :	٤٧
القرآن والرسالات السماوية	٥١
القرآن والغيب	٥٥


شبكة الألوكة
www.alukah.net


Design By: 010 144 9265